الفصل الرابع
التربية والسلوك

فى حديثنا السابق أفضى بنا الأمر الى تحديد إطار لمفهوم بسيط جدا لما تعنيه تربية ما .

فالتربية — فى تحليلها النهائى — تتكون من تنظيم للموارد فى الكائن الانسانى ، ولقوى السلوك التى تلائمه لعالمه الاجتماعى والمادى .

والشخص المعدوم التربية هو الذى لم يضف اليه شىء سوى ما اعتاده آليا .

وعلى العكس من ذلك ، الشخص المتربى هو القادر على اتتشال نفسه عن طريق الأمثلة المختزنة فى ذاكرته والمفاهيم المجردة التى حصلها من الظروف التى لم يسبق له أن وضع فيها من قبل .

وبالاختصار لا يوجد وصف أفضل للتربية من تعريفها بأنها تنظيم لعادات الخلق المكتسبة وليول السلوك . واليك البيان :

أنتم وأنا ، كل واحد فينا ومجموعنا مربىً بالطرق العديدة التى رُبِّينا بها . ونحن نفصح عن تربيتنا فى هذه اللحظة بأنواع مختلفة من الخلق والمسلك .

ويستحيل علىّ تماما — بما لدىّ من تنظيم فنى ومهنى لعقلى وبما تبعثه رؤيتكم فى نفسى ووجودكم أمام ناظرى — أن أظل جالسا هنا كالصنم لا أتكلم ولا أتحرك .

إن هناك شيئا يدعونى الى أنه من المتوقع منى أن أتكلم ، وأنه من المحتم على أن أتكلم ، شيئا يجبرنى على الاستمرار فى الحديث .

وأعضاء الكلام عندى فى حالة نشاط عصبى مستمر بسبب التيارات الخارجة — وهى التيارات التى حركتها تيارات أخرى مرت داخل عينى ثم جاست خلال مخى المتربى — أما الحركات الخاصة التى تؤديها أعضائى فقد شكلها ونظمها وقررها تدريبى الموصول من الماضى الى الحاضر على المحاضرات والقراءة . ومسلككم أنتم — من جهة أخرى — قد يبدو لأول وهلة مسلكا سلبيا خامدا وآخذا فحسب اذا نحينا جانبا ذلك الفريق الذين يدونون مذكرات إبان حديثى .

ولكن إنصاتكم لى فى حد ذاته هو فى ذاته نوع من السلوك المدبر المقصود .

فكل التوترات العضلية فى جسومكم تستثار بطريقة خاصة وأنتم تنصتون .

فرءوسكم وأعينكم تتخذ أوضاعا ذات مواصفات معينة .

وعندما تنتهى المحاضرة فانها حتما ستفضى الى سلوك — كما سبق لى أن قلت ذلك ؛ فقد يسعفكم كلامى ويوجهكم توجيها مختلفا فى حالة خاصة من حالات الطوارىء فى قاعات الدرس ، وتفيدون من كلمات أو معان تتساقط من فمى الآن .

وكذلك الأمر بالقياس الى الانطباعات التى ستخلقونها فى نفوس طلابكم ... عليكم أن تعودوا أنفسكم اعتبار كل تلك الانطباعات كعوامل مؤثرة فى تحصيل الطالب لقدرته ومسلكه الانفعالى والاجتماعى والجسمانى والكلامى والفنى وغيرها وغيرها .

وما دام هذا هكذا فلزاما عليكم أن تشعروا بالرغبة بصفة عامة ، ومن غير عوج ولا أمت أو ضنى ، أن تعدوا أن أغراض هذه المحاضرات بمفهومها البيولوجي للعقل هى أن نفيد منها عمليا .

هذا المفهـــوم سيتكفل — بالتأكيد — بالجزء الأكبر من عملكم التربوى .

فاذا تمعنا فى المثل العليا المتعددة للتربية السائدة فى مختلف بلاد العالم نجد أنها كلها تستهدف تنظيم قدرات السلوك .

وهذا واضح جدا وضوحا مباشرا فى ألمانيا حيث يشهر وينص هدف التعليم العالى صراحة ، على أن الغرض منه هو تحويل الطالب الى أداة من أدوات تقدم الكشف العلمى ، حيث تتشامخ الجامعات الألمانية بعدد الشبان المتخصصين الذين تخرجهم كل عام . وهم ليسوا بالضرورة رجالا ذوى عبقرية عقلية ابتكارية ، ولكنهم رجال مدربون على البحث العلمى لدرجة كبيرة بحيث اذا طلب منهم أستاذهم إعداد رسالة تاريخية أو لغوية أو إجراء تجارب فى المختبرات ، مبينا لهم أنها أحسن طريقة ، فانهم يمضـــون الى غايتهم معتمدين على أنفسهم ويستعملون الأجهزة العلمية وينقبون فى المراجع على نحو يجعلهم يستقطرون وينتخلون فى نهاية الشهور القليلة المحددة للبحث حقائق جديدة جـديرة بأن تضاف الى المادة الموجودة عن هـذا الموضوع والمختزنة فى التراث الانسانى .

لا يوجد شىء آخر معترف به فى ألمانيا يخول الرجـل حق الترقية الأكاديمية سوى قدرته على أن يثبت أنه أداة فعالة للبحث العلمى .

أما فى انجلترا فيبدو الأمر لأول وهلة كما لو كان هدف التعليم العالى فى الجامعات هو إنتـاج أنماط معينة ، أو نماذج مجمـدة من الأخـلاق

والشخصيات ، بدلا من تنمية وتطوير ما يمكننا أن نسميه بالكفاية العلمية الديناميكية التى تنتهجها ألمانيا .

لقد قيل إن الأستاذ جوويت Jowett عندما سئل عما تستطيع جامعة اكسفورد أن تفعله لطلابها ، أجاب : « إن اكسفورد تستطيع أن تعلم الجنتلمان الانجليزى كيف يكون جنتلمانا انجليزيا » .

ولكن اذا تساءلت عن معنى كونك جنتلمانا انجليزيا ، فالاجابة الوحيدة التى تفسر ذلك وتسوغه ستكون نوعا معينا من الخلق ، وطرازا خاصا من السلوك ، ونمطا عمليا من المسلك .

فالجنتلمان الانجليزى هو حزمة من ردود الأفعال المعينة ذات المواصفات والمؤهلات الخاصة . مخلوق يلاقى كل طوارىء الحياة على مسار ومدار سلوك بارز المعالم قد استوضحه وتلقنه من قبل . وهنا — كما هى الحال فى كل مكان آخر — تتوقع انجلترا من كل رجل أن يؤدى واجبه لاحراز هذا الهدف .